مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 06 (عدد خاص) 2022 ص ص 119-137

الثالوث التربوي الإصلاحي عند جمعية العلماء المسلمين

The educationalreformtrinity of the Association of MuslimScholars

د/ كمال، لعور*
جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف- (الجزائر)
البريد الالكتروني: Laouer.kamel@yahoo.com

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/02/27	2022/04/01	2022/04/16

الملخص: أرست جمعية العلماء المسلمين لنظام تربوي شمولي اتخذ طابع الإصلاح، واتشح بالنفس المقاوم، ومكّن هذا الأسلوب الوسطي المرن من انقاذ المجتمع الجزائري من مخاطر هددت الهوية الدينية والوطنية، يأتي على رأسها التجنيس، الخرافة، والانهزام النفسي أمام المحتل، فكانت التربية الاجتماعية والدينية والسياسية التقعيد الأمثل لعودة الأمة الجزائرية معتزة برصيدها وتاريخها، كما كانت مِعول انهيار الكيان الاستعماري.

الكلمات المفتاحية: *إصلاح ؛ تربية ؛ علماء ؛ استعمار؛ ابن باديس*

Abstract: The Association of MuslimScholarsestablished a totalitarianeducational system thatadopted the character of reform, and adhered to the self of resistance. This flexible, moderatemethodenabled Algerian society to besavedfrom dangers thatthreatened the religious and national identity.

On top of itcomesnaturalization, superstition, and psychologicaldefeatbefore the occupier. Social, religious and politicaleducationwas the ideal setting for the return of the Algerian nation, proud of its stock and history, as itwas the machine of the collapse of the colonial entity.

Keywords: *repair; education; Scholars; colonialism; Ibn Badis*

*المؤلف المرسل

المقدمة:

اصطدم الجزائريون بالواقع الاستعماري والغزو الحضاري الأوروبي المكتسح اصطداما عنيفا فمنهم من انكمش فاعتزل،إلاّ أنّ هذا الموقف اعتبره كثيرٌ من الباحثين سلبيًا لأنّه" ينتج التخلّف الشديد عن ركب الحياة، ويقطع صلة هذا الجزء عن باقي العالم." (الندوي، 2006 صفحة 7)؛ ومنهم من انبهر به وأغرق في حضارته "بعقائدها الأساسية ومناهجها الفكرية، وفلسفاتها المادية ونظمها الاقتصادية والسياسية التي نشأت، واختمرت في بيئة بعيدة عن بيئة هذا الأقطار تحت ضغط عوامل وحوادث خاصة" (عبود، 1995 صفحة 5)؛ ومنهم فئة قاومته مقاومة شديدة وواعية تأخذ من الغرب ما يعينها كمشترك إنساني، وتتجنب الخواص الحضارية، ويبدو أن الحركة الإصلاحية الجزائرية أحسنت هذا الدور الوسطي بإحكام، فتجنبت الوقوع في الفخاخ التي رصدها المستعمر، كما كان دورها التربوي والفكري طلائعيا مثمرا.

ويشير الباحثون لوجود خطة غربيّة سعت لاحتواء العالم العربي وحضارته استغلت أساليب العلوم الحديثة من علم نفس واجتماع وأنتربولوجيا وغيرها، من أجل تدجين إنسان المنطقة الإسلامية وطبعه بطابع الحضارة الغربية، حيث أدركت أوروبا أنّ العقبة الرئيسية التي تقف في طريق استيلائها على العالم هو الإسلام، لأنه حضارة ضاربة في جذور الشرق وإنسانه فلا سبيل إلى إخضاع هذا الشرق إلا بتشويه الإسلام ودراسة سبل نزع تأثيره في النفوس الإنسانية التي اعتنقته (عبود، 1995 صفحة 7)؛ اتبعت فيها أحدث الأساليب، وأثّرت على مختلف أطياف المجتمع، ففي الجزائر تأثّر بها رجال الدين والسياسة، فزرعت بينهم الفرقة ودخلوا في صراع فكري على حسب درجة التلقّي، والاحتواء للمزروع الغربي، وحسب الرصيد القيّمي للموروث العربي الإسلامي "فمنذ بدأ الاستعمار الغربي في القرن التاسع عشر كان تأثيره الثقافي مواكبا لكل خطواته بل سابق عليها وباقيا بعدها، ذلك أن المستعمر أدرك أن بقاءه مرهون بنشر الأفكار وإدخال

الحضارة" (حاجم، 2007 صفحة 27)؛ فكيف تصدى العلماء لهذا الغزو الفكري المشحون؟ وماهي الأركان الأساسية التي تأسس عليها عملهم التربوي في نطاق أولويات العمل الإصلاحي الشمولي بشقه الاجتماعي والديني والسياسي؟

إنّ مائة وثلاثين سنة من الاستيطان الفرنسي في الجزائر، وثلاثة أجيالٍ من حكم الفرنسيين لم تمكّن من تمسيح البلاد ولا من فرنستها، فقلد بقيت الجزائر صامدةً محافظة على شخصيتها وتقاليدها متحمّلة أقصى وأطول عملية استيطانٍ في التاريخ،ويعزى هذا الفضل إلى أحزاب وجمعيات وحركات دينية ووطنية ضمت علماء ومفكرين أجلاء قاومت الاستعمار كما صارعت أذياله،يأتي على رأسها جمعية العلماء المسلمين التي نشرت الوعي الإصلاحي والحس التربوي على نطاق واسع في المجتمع الجزائري، ونقلته من سلوك الخضوع للأعراف المكبلة، والتقاليد البالية، ومن هوان الانبهار بالحضارة الغاوية الغازية إلى مستوى الاعتزاز بالقيم الفاضلة، والتسلح بالفكر الوقاد إلى تحدي الكيان الاستعماري.

يجب في البداية تحديد المقصود بالتربية، حتى نتدارس مدى تحقق ذلك عن طريق جمعية العلماء المسلمين، حيث تعددت معاني ودلالات مفهوم التربية، إلا أن من الممكن فهم التربية على أنها عملية "تغيير" وإصلاح في آن واحد، بواسطتها ينمو الإنسان ويزدهر، وتتفتح ملكاته وقدراته، إن عملية التغيير هذه تهدف، أولا إلي إعداد المواطن لكي يستطيع أن يؤدي أدواره التي يتوقعها منه المجتمع، إنها عملية تكوين الشخصية، أي جعل الفرد شخصا له شخصيته الاجتماعية، واتجاهاته الفكرية نحو من يحيط به من الناس، سواء كانت هذه الاتجاهات مما يفيد أو يفسد المجتمع وجماعاته، و تكون فائدته ضرورية للمجتمع وجماعاته في ضوء قيم هذا المجتمع، "ومن خلال اتجاهاتهم ونظرتهم نحو الأمور والأشياء والأشخاص، أي نحو الحياة التي يعيشونها أو يصنعونها، أو يحاولون صنعها علي السواء، كما أنها تدعو إلي الخير، وكل ما يعين علي العمل الصالح

من أجل الآخرين، وعلي التغيير إلى الأفضل وإلى الأقوى وإلى الأعظم، ومن ثم فهي قيم حميدة تدعم الروح المعنوية في صفوف أعضاء المجتمع، وترتفع بهذه الروح وتثبتها وتقويها، وقد تكون قيم المجتمع عكس ذلك... قيما سلبية أي غير بناءة، لا تدعو إلى الخير بل إلي الشر، وما يعين علي العمل غير الصالح ضد الآخرين."(الديهي، 2015 صفحة 144)

نهدف في هذه الورقة البحثية إلى التركيز على القيم التربوية والسلوكية التي زرعها علماء الجزائر المنتمين إلى جمعية العلماء المسلمين، والتي اتخذت أسلوب المقاومة الفكرية، ويمكن اختزالها ضمن ثلاث أطر يأتي على رأسها التربية الاجتماعية برفض التجنيس، ثم التربية الدينية برفض الخرافة والدجل، وأخيرا التربية السياسية بمقاومة الكيان الاستعماري، وارتكنا لتوصيل ذلك إلى منهج وصفي يحلل المواقف، ويقارن أحيانا بين الاتجاهات الفكرية، ويقف عند ما أنجزته الجمعية الدينية الريادية.

1. دسائس الحركة الاستعمارية:

لم يكن المجتمع الجزائري في بداية النهضة الأدبيّة والفكريّة مع مطلع العشرينات من القرن العشرين حراً كل الحرية في تصرفاته وتفكيره، لذلك يصعب أن نرجع معظم الظواهر الاجتماعية إلى الجزائريين أنفسهم ما لم نضع لها خلفيتها التاريخيّة، والتي مارس الاستعمار من ورائها في كثير من الأحيان دور المحرك والمتصرف.

ومثلما سبق الإشارة إليه فإنّ الاستعمار الفرنسي في الجزائر مارس سطوته الفكريّة الغاشمة على الأمة الجزائريّة، واحتكر كل الميادين السياسية والفكرية والأدبية والدينية، ودعّم ذلك بكبت الحريّات المختلفة، وطوق بيده الحديديّة الشائكة كل المجالات،نجم عن ذلك آلية في التفكير والتنفيذ، وهو ما تحدث عنه مالك بن نبي في بعض مؤلفاته؛ معتبرا إيّاه أثراً بارزاً بقي بعد جلاء المستعمر، وصعب محوه حتى أنّ "ظروف البلاد المستعمرة لم تترك لمن يدخل الصراع الفكري أن يختار، ولو قدرنا أنّه قد اختار هو نفسه هذا النوع

من الكفاح لكان في تقديرنا نوع من الاعتساف،لأنّنا نكون قد اتهمناه بمقدار من البلادة، لا يتصوره العقل وبمقدار من البطولة لا يدّعيه لنفسه." (نبي، 1988 صفحة 21)

ثم بدأ الاستعمار يغيّر قليلا من سياسته، فسنح بقليل من حرية الإعلام، وحرية التدين وأعطى الضوء الأخضر لنشر الصحف تحت رقابته الصارمة، وفتح مدارس خاضعة لمشيئته وراح –والحالة هذه- يبثّ الفرقة بين الصحف، وينشر التطاحن بين الفرق الدينية حتى يخلو له المجال،ولا يتسنى لهذه المنابر أن تتحد لصدّه، "فلو أتيح لإنسان أن يتتبع بإمعان أحوال الصراع الفكري في بلد مستعمر معيّن ورزق موهبة النقد السليم للأشياء،والإدراك الصحيح لمجرى التاريخ... ولو تتبع هذه الأحوال منذ الحين الذي دخلت فيه القوى المناهضة للاستعمار على المسرح، فإنّه سوف يتنبه لشيء هو أنّ الاستعمار يُسلّط الأضواء الكاشفة على ركنٍ معينٍ من المسرح، أي بالضبط على النقطة التي يريد أن يُجمّد عندها القوى المناهضة له." (نبي، 1988 صفحة 30)

والغريب في الأمر أن قدرة الاستعمار على التخفي وراء الأحداث التي يصنعها كانت دائما سببا وجيها في عدم تفطن الجزائريين لما يحاك ضدهم ما صَعّب من اكتشاف حقيقة دسائسه، لأنّه كان يجعل منه "صراعا خفيًا أصمًا دون صدى ودون شهرة، صراعا يحيطه الظلام والإبهام والغموض." (نبي، 1988 صفحة 36)

وكان الاستعمار يشعر بالغيظ والأسى كلما تصالحت الطوائف المتصارعة في الجزائر مما يسير عكس تيار سياسته، فيجتهد في إعادة الخصومة والصراع إلى سالف عهدها،فقد كان يتدخل كلّما حدث اتفاقٌ ووئامٌ مؤقتٌ بين الطرقيين والإصلاحيين على ما كان بينهم من صولات صراعية مريرة خاصة بين أتباع الطريقة العليوية، وأنصار جمعيّة العلماء المسلمين فلم يكن ليرضي فرنسا ويروق لها أن يتمّ التصالح بين طائفتين متخاصمتين من المسلمين أو يقع الانسجام والتعاون والسلام بين قادة جماهير المتدينين، "فشرعت تكيد لتعكير الجوّ بين الطائفتين، وإحلال الخصام من جديد محل السلام، وتدبير مكر لتشتيت

الجمع والقضاء على الجمعية التي كانت تجمع الطائفتين المصلحين والطرقيين،إما بالاستيلاء عليها وتسخيرها لأغراضها وإما بمحوها وسحقها."(حمّاني، 1984 صفحة 319)

2. التربية الاجتماعية برفض التجنيس:

لم تعد الجزائر ـــــ في ظل استعمار غاشم ـــــ سيّدة نفسها، بل طُوقت من كل جانبٍ وكان الاستعمار يحكم زمام السياسة الداخلية والخارجية على حدّ سواء، حتى طلعَ على الأمّة بخبرٍ جديدٍ عند مرور قرن على هيمنته على أرض الجزائر،أنّ الجزائر قطعة من فرنسا،ومع بروز الإعلام بدأت الساحةُ الثقافيةُ تعكس واقعاً فكرياً متناقضاً ترسمه ثنائيات متشعّبة كان للاستعمار دور في نحتها، وكان للجهل المستشري والأمية يدٌ أخرى، وكانت الأيادي الداعكة كثيرة، لعلّ أشدّها خطراً المثقفون الذين انبهروا بالحضارة الغربيّة، وأدمنوا التعليم الفرنسي.

والمعلوم أن الشعوب العربية منيت على اختلاف بلدانها بأحزاب مختلفة المشارب على رأسها التيار الإصلاحي الذي يرى أتباعه أنّه لا يتغير شيء في الواقع،إن لم يتغير فهمنا للدين أولاً والتيار الليبرالي الذي ينّص على أن تغيير الواقع لا يكون إن لم تبن الدولة الحديثة،مع انتهاج التيَّار العلمي العلماني.

وقد كان موضوع الإدماج من أهم القضايا السياسيّة التي شغلت مختلف التيارات الفكرية والسياسية الجزائرية، تلك المحاولة الماكرة التي أرادت من خلالها فرنسا أن تقضي على كل أملٍ في الحرية وكل حلمٍ في الاستقلال، لتظهر للعالم أنّ الجزائر قريةٌ صغيرةٌ تابعةٌ لفرنسا لا يفصلُها عنها سوى البحر المتوسط.

فشاع وسط الجزائريين أواخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين مصطلح الاندماج الذي طبَّلت له وسائل إعلام المستعمر طويلا حتى استهوى بعض النفوس الضعيفة من النخبة،فرأت فيه حلاًّ عقلانيا ومخرجا واقعيا لأزمة الشعب الجزائري،

"والاندماج بمفهومه السياسي من منظور فرنسا وإعلامها وكتابها، يهدفُ إلى جعل الجزائريين سياسيا واقتصاديا واجتماعيا فرنسيين يتمتعون بالحقوق الفرنسية."(مزوز، 2010 صفحة 24)

ولكن هذه الدعوى البرّاقة كانت تختفي من ورائها أهدافٌ خبيثة تبقي الجزائر رهينة محبس فرنسا فكانت الإدارة الاستعمارية تسعى إلى اجتذاب المثقفين الجزائريين المتشبعين بالطرح السياسي الاستعماري من جهة، ومحاولة إحباط أي تفكير وطني يتبنى فكرة الاستقلال عن فرنسا من جهة ثانية، إلى جانب توجيه خطاب للاستهلاك الخارجي مفاده أنّ الجزائر تعيش حالة اندماج حقيقي مع فرنسا فهي جزء لا يتجزأ منها، ولا مجال للحديث عن استعمار أو احتلال. (مزوز، 2010 صفحة 25)

ومع الحراك الإصلاحي وظهور الصحف باللغة العربية وتنامي الدعوات الى إنشاء المدارس الحرة والكتاتيب صار للكلمة معنى مغاير، وللصوت المجهور آذان مصغية واعية، وكانت الجزائر في العشرينات من القرن العشرين تشهد نشاطا للحركة الليبرالية؛ "وكان معظم أعضاء هذا الحزب يعتقدون في التعاون مع فرنسا وكانوا أيضا معتدلين في مطالبهم السياسية والاجتماعية، وفي نفس الوقت كانوا أيضا متحمسين للاندماج وللثقافة الفرنسية".(القاسم، 2009 صفحة 352) وكان من أشد أجنحة هذا الحزب تزلفا أولئك الذين طالبوا بدمج الجزائر في فرنسا عن طريق التجنيس الجماعي، بقطع النظر عن القضية الدينية، ونادوا بالتعليم الفرنسي، وإتباع طريقة الحياة الفرنسية وبالمساواة التامة مع الفرنسيين.

وكان التيار الإصلاحي في الجزائر يصارع على عدّة جبهات، منها جبهة التجنيس والذوبان في فرنسا، فحدث صدامٌ بين المصلحين ودعاة التجنيس، ولعل من أهم مشاهد هذا الصراع العبارة التي نطق بها فرحات عباس يوم 24 فيفري 1936 في جريدة التفاهم:"فرنسا هي أنا" فكان من أقذع ما قاله:"ومع ذلك سوف لن أموت من أجل الوطن

الجزائري،لأنّ هذا الوطن غير موجود ولم أكتشفه،وقد سألت التاريخ،وسألت الأحياء والأموات،وزرت المقابر، ولم يكلمنّي أحدٌ عنه." (حمّاني، 1984 صفحة 65)

ولم يمر هذا الخطاب بسلام، بل تلقفه الشيخ **ابن باديس**، فتصدّى للرد عليه بقوة،فقال:"إنّ هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت بل هي بعيدة كل البعد عن فرنسا،في لغتها وفي أخلاقها،وفي عنصرها وفي دينها،لا تريد أن تندمجَ ولها وطنٌ محدودٌ ومعينٌ،هو الوطن الجزائري بحدوده الحاليّة المعروفة.

لقد وجدت كلمات فرحات عباس مقاومة بلا مهادنة أو مواربة من قبل المصلحين الذين يعزى لهم الفضل الكبير في استعادة أمجاد الوطن، والأمة الجزائرية والإبقاء عليها مسلمة حتى في أشدّ أوقاتِ التمسيحِ والفرنسةِ والتنكيل. ولعل من أبرز رواد هذا الاتجاه في المجال الديني ابن باديس، والإبراهيمي ويصنّف هؤلاء إلى جانب الأفغاني، والكواكبي، ومحمد عبده، ضمن ما سمي بالتيار التوفيقي لأنّهم كانوا يسعون إلى إيجاد صيغ متوازنة، وموافقة بين الحضارة العربيّة الإسلامية والحضارة الغربيّة، وكانوا في كثير من المبادئ والمفاهيم يرجعون الأنماط الأوروبية الحديثة إلى أصول إسلامية. (بوعزيز، 2009 صفحة 319)

لقد دخل التيّار الليبرالي الساحة السياسية والثقافية،فرفض الماضي رفضا كليّا، وبالتالي دخل في صراعٍ مع المصلحين لأنهم يفترضون الماضي كجزء لا يتجزأ من فهم الحاضر، ولأنّهم أيضا ينشدون تربية الإنسان قبل ثوريته، وهذا الاتجاه كان يرى أولوية التحرر مع بعض أقطابه، وأقطابٌ أخرى تدعو إلى الذوبان والتجنيس، فهذا الاتجاه "هو ثمرة الثقافة الغربيّة والفرنسية بوجه خاص، وهو اتجاه يدعو إلى الحريّة الفردية، ويتبنى التفكير البرجوازي الطبقي الذي استمد مقوماته ونظرياته من الفلسفة الغربية ومن الفكر الفردي." (الركيبي، 2009 صفحة 60)

وقد تغذى هذا التيّار من البهرج السياسي الغربي، وأعجب بالديمقراطية الأوربيّة، فأراد أن يتمتع الجزائريون بالمجالس النيابية، ويتقنوا حرفة التحزّب والأحزاب، وينخرطوا في إطار جمعيّات سياسية، ويلجوا غمار الانتخابات حتى ينالوا مرادهم، و اعتبروا هذا الفكر هو الدواء الذي لا دواء غيره لما يتخبط فيه المجتمع من تخلف وجمود وعبودية.

وكان ينمو داخل هذا الاتجاه مساران متناقضان الأول يطالب أصحابه بالإدماج في المجتمع المتفوق الذي غزا البلاد، ويرضون بالتجنيس، ويسلمون الزمام للمستعمر بحجة أنّه تحصيل حاصل وفئة ثانية أقوى وهم المطالبون بالانفصال عن المستعمر، والعمل بكل وسيلة لنيل الحرية والاستقلال، ويعزى له الفضل في التمهيد للثورة والمكافحة من أجل التحرر.

إلا أن تيار العلماء بقيادة ابن باديس كان يبثّ في النفوس الأمل من جديد في غدٍ أفضل ومستقبل زاهرٍ "إذ ركّز في تربية وتلقين شباب وكهول عصره على فكرة السببية التي تتعارض مع عقلية القضاء والقدر،فبيَّن لهم أنّ التدهور الذي تعانيه الأمم له أسبابه،ومتى أُزيلت هذه الأسباب أُزيلت المعاناة التي تعانيها الأمة من المحتلين وأعوانهم،فقد كان أهل الجمود يعتقدون أنّ صنوفَ الحَيْف التي يعانونها قد نزلت بهم عفوا، وأنّ الله أراد لهم العذاب دون أن يكونوا أهلا له".(صفصاف، 2005 صفحة 50)

3. التربية الدينية بنبذ الخرافة والجمود:

لم تكن الحياة الدينيّة الجزائرية في العهد الاستعماري تسري على وتيرة واحدة، فقد عمّتها البلابل والقلاقل لأن الظاهرة الدينيّة حركت الثورات القديمة والحديثة، فاحتوى الاستعمار رجال الدّين، تارة بالزهور وتارة أخرى بالأغلال، إلى أن استتب له الأمر نسبيا مع بعض الطرق، فيما ظلت أخرى تنافح وتكافح من أجل الدين والإصلاح، وعجز الاستعمار عن شلّ تيار الإصلاح المتدفق.وعندما بدأ ينتشر على نطاق واسع في المجتمع

الجزائري، وضع نصب عينه أن يضرب التيارات الدينيّة بعضها ببعض، ويبقى من قريب متفرجا على المشاهد التي يخرجها بإحكام.

وقد بقي المجتمع الجزائري يرزح تحت نَيرِ الطرقية السلبيّة بعد خفوت الحسّ الثوري الذي عُرفتبه ولقي زعماء الطرقية السند الماديَ من طرف الاستعمار، لأنّه كان يخشى سطوة الزاوية، والتفاف الناس حولها، فجعلها تحت رعايته السامية.

من هنا بدأت الزاوية تنتقل تدريجيا من صف الشعب الجزائري إلى طوق الأيادي الاستعمارية الخفيّة، فجعل الاحتلال منها أفيونا عَمّر طويلا،وليس في هذا الكلام تجنيًّا على الزاوية ودورها، فقد رَسَخ الاعتقاد في أنّها مارست منذ عقود وأجيالٍ أدواراً بطولية في مقاومة الاستعمار، إلاّ أننا نقصد الزاوية منذ سنة 1870 إلى غاية اندلاع الثورة، فقد مارست سياسة منبطحة ارتجاعية لو لم يقيّض الله رجال الإصلاح وقفوا ضد توجهها، وشتان بين الزاوية كقيمة معنوية، وبين السلوكيات الارتجاعية التي كانت تمارس باسم الزاوية "وقد بقيت مكانة الزاوية الاجتماعية، وتأثيرها الروحي على المحكٍّ، فلم تسلم من مضايقات الاحتلال، وعمله الدؤوب على تحييدها والهيمنة عليها بمختلف وسائل الإرهاب ليقتصر دورها التعليمي على القرآن، وعلوم الدين." (قينة، 1995 صفحة 12)

فعرفت الجزائر صراعا دينيا بين السنّة والبدعة وبين العقل والخرافات وبين التقدم والانحطاط وصراعا قوميا سياسيا بين الاندماج وأعوانه والدعاة إليه،وبين الوطنيّين المخلصين الذين يَحكمون عليه بأنه الموت الحقيقي للأمة،ويفضلون البقاء في الانحطاط والخرافات والتأخر على التقدم مع الاندماج.(زروخي، 2002 صفحة 14)

بدأت معالم الطرقية التواكلية تستنفر قوتها، وعُدّتها للرد في مختلف الميادين الدينية، والسياسية، والأدبيّة بعد أن ترسخ التيار الإصلاحي ، ولم تهضم سقوط معاقلها الواحدة تلوى الأخرى فدافعت بإيجابية مرة، ودافعت بسلبيات مرات كثيرة، واضطرت بعض الطرق إلى تحديث تنظيمها، وسلوك الميادين المستحدثة لتكون في مستوى التيّار

الإصلاحي، فالطريقة العليوية مثلاً اتخذت لها صحفا تدافع عنها مثل صحيفتي لسان الدين والبلاغ"وقد بدأت غشاوة الأوشاب التي سادت ما بعد عهد الموحدين في الانفراط، والتفتت تحت تأثير جُهد هذا النشاط الأخلاقي والسياسي المزدوج الذي حرَّر الوعي التاريخي، وردّه إلى جادةِ التاريخ." (نبي، 1991 صفحة 28)

وجزء من هذا النشاط التربوي عايشه مبارك الميلي فعلا عندما أنتدبه ابن باديس إلى الأغواط لنشر العلم والدين، فأقام بها قرابة الثماني سنوات، تجند من خلالها ضد الطرقية وعمل على وقف زحف العِلم الفرنسي إلى الناشئة "وكان أكثر الأغواطيين من قبل مرتبطين بالطرائق الصوفية المتنافرة والمتناحرة، فتطهرت عن طريق الشيخ مبارك عقائدهم، وتفتحت عيونهم على الحق والهدي... وطرحوا عنهم رداء الطرقية وانحرافها."(العسلي، 1986 صفحة 162)

وكاد نشاط الميلي أن يودي بحياته بالأغواط، فقد حاول أحد المتعصبين اغتياله لولا تلاميذه وأنصاره، وعندما فشل المستعمر في سياسته"طلب من مشايخ الطرق إرسال عرائض تطلب طرد الشيخ مبارك من الأغواط، وإغلاق مدرسته، ومارست في الوقت ذاته ضغطا على موظفيها وأعوانها من الأغواطيين لمضايقة الشيخ وإزعاجه إلى أن ارتحل عائد إلى المسيلة سنة 1931."(العسلي، 1986 صفحة 165)

ومن أبرز مزايا الفكر الإصلاحي أنّه فكرٌ حركيٌ أي أنّه له نظرة جديدة للتاريخ تمتاز بفهم دينامي للمجتمع بينما الفكر الرجعي الجامد لا يعترف بحركة التاريخ، ولا يعمل من أجل التقدم بأي نوعٍ من أنواع العمل،فبقدر ما نجد هذا الفكر الإصلاحي ايجابيا في مجمله، فقد لعب هذا الاتجاه دوراً كبيراً في الحياة الفكرية والثقافية والسياسيّة، بل وكان له الفضل في تحطيم الفكر السابق عليه.

وقد فرضت الأوضاع المترديّة تشظيا في الفكرِ نشأت عنه الثنائيات المتناقضة، ولم تكن حكراً على المجال السياسي فقط، بل امتدّت إلى المجال الديني بعد أن احتلّ المستعمر

نطاقا واسعا من الأمة، وفرض حضارته فرضا على المحيط العربي الإسلامي، حتى غذت هذه التشكيلات الثنائية"الدعامة الأساسيّة في تفكير العرب خلال القرن العشرين، وتفاقم خطر اشكالياتها المحتدمة جداليا (وليس جدليا) بين مختلف القطاعات الفكرية، ولعل من أبرز تلك الثنائيات: القديم والجديد واليمين واليسار، والرجعية والتقدمية، والتراث والحداثة، والأصالة والمعاصرة، والمطلق والنسبي والماضي والحاضر، والتخلف والتمدن، والبداوة والحضارة، والإصلاحية والانقلابية والإتّباعي والإبداعي والاغتراب والاعتراب." (الجميل، 1997 صفحة 80)

وعلى كثرة هذه التيارات التي تستدعي التنوع الفكري وتترجم حرية الرأي، إلاّ أنها ساهمت في الفرقة التي ظلت علامة مميزة في التاريخ الجزائري برعاية استعمارية مفضوحة، بل هي قسمة بين العديد من الأمم العربية التي اكتسحها الورم الأجنبي فأفقدها مناعتها، وعاث في صحتها، وجعلها تدور من مصحة إلى أخرى حتى صار للأمة الواحدة ثقافتان بدل الواحدة "ثقافة تنشد إلى الماضي التراثي،وتتخذ منه مصدرا وحيداً للمعرفة،فإذا هي معرفة ماضوية مبتورة عن المشاكل الراهنة للمسلمين متنكبة عن الكسب الإنساني من المعرفة الكونية المساعدة على حلّ تلك المشاكل، وثقافة تشدّ إلى الكسب المعرفي لثقافة الغرب،وتتخذ منه مصدرا وحيدا أو يكاد للمعرفة،فإذا هي معرفة مبثوثة عن الأصول الدينية والتراثية للأمة،غريبة عن طموحاتها في بناء الحياة،واستعادة الفعل الحضاري." (النجار، 2005 صفحة 68)

فما أنجزته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة ابن باديس مثّل صورة حسنة للدعوة الغراء إلى النهضة من خلال العلم والتربية والأخلاقية، فالإصلاح ذو شقين مترابطين، التعليم من ناحية، ونبذ الجمود والأوضاع الطرقية والاستعمارية كنتيجة للعلم والتعليم (صفصاف، 2005 صفحة 442)؛ ولهذا كانت الإصلاحية الباديسية تمتاز عن

الإصلاحية الكلامية المجردة للشيخ محمد عبده في المشرق بالجمع بين الاتجاهين السياسي والتربوي مع الاعتماد على التربية كوسيلة أساسية في عملية التغيير.

4. التربية السياسية بمقاومة الاستعمار:

تجسدت حيثيات الاهتمام السياسي لدى الجمعية ،منذ الإعلان الرسمي عن ميلاد جمعية العلماء المسلمين في 5 ماي 1931 بنادي الترقّي، حينما بادرت بجمع الأطياف والأحزاب لعقد المؤتمر الإسلامي الذي تم في 7 جوان، 1936 وذكر ابن باديس أسباب عقده قائلا:"نظرا لتدهور الحالة العامة في الجزائر، والبلبلة السياسية السائدة واختلاف الأحزاب والهيئات الوطنية، وتشتتها رأيت أن أدعو إلى مؤتمر إسلامي جزائري عام،يجمع الشمل ويوحد الصفّ، ويحدد الهدف،لأن المرجع في أمور الأمة يعود إلى الأمة،والواسطة لذلك هي المؤتمرات والندوات التي تُفحص فيها الأمور، وتُخصص النتائج، والإجماع أصلٌ من أصول تشريعنا الإسلامي، فلماذا لا نعمل به في السياسة". (النجار، 2005 صفحة 67)

وقد شاع عن بعض الدارسين أنّ جمعية العلماء المسلمين ليست حركة سياسية بالدرجة الأولى لكونها أقرت في قانونها الأساسي بحظر أي بحث سياسي، وكل تدخل في أية مسألة سياسيّة داخل نطاق الجمعيّة إلاّ "أن أهدافهم كانت سياسية سواء أرادوا ذلك صراحة أم لم يريدوا، والدليل على ذلك مواقفهم الخفيّة والمعلنة التي اتخذوها لإفشال مخططات الاستعمار، ومنها رفضهم لقانون التجنيس، ولمحاولات الإدماج حيث أصدر ابن باديس فتوى جريئة اعتبر فيها المتجنسين بالجنسية الفرنسية مرتدين وخارجين عن الإسلام." (سلوادي، 2017 صفحة 24)

وقد سبق لابن باديس أن صرّح جهاراً بذلك في محاضرة ألقاها سنة 1937 بتونس بدعوة من جمعية الطلبة الجزائريين والجمعية الودادية الإسلامية تحت عنوان: "الحركة العلمية والسياسية في القطر الجزائري" فكان مما قاله: "وكلامنا اليوم عن العلم والسياسة

معا، وقد يرى بعضهم أنّ هذا الباب صعبُ الدخول لأنهم تعودوا من العلماء الاقتصار على العلم، والابتعاد عن مسالك السياسة مع أنّه لابد من الجمع بين السياسة والعلم،ولا ينهض العلم والدين كل النهوض إلاّ إذا نهضت السياسة بجد." (سلوادي، 2017 صفحة 207)

كان ابن باديس شخصية كارزمية قيادية محنكة فطنا عارفا بدسائس فرنسا ومكائدها حافظا لدروس شيوخه بخيت الازهري و حمدان الونيسي، فأوصاه شيخه الثاني بعدم قبول الوظيف الفرنسي، و سار على درب الامام محمد عبده بعدم خوض السياسة حتى انه اعتذر من قبول دعوة الأمير خالد له عندما قال "أنا لست سياسيا،أنا رجل دين، حسبي أني انشر الدين الاسلامي" (العقون، 1984 صفحة 157)؛ لكن يبدو أنها كانت مناورة لإبعاد الشبهات عن مساره، وحتى يضمن ديمومة لاستمرار عمله السياسي العام.

ويظهر جليّا تصدي ابن باديس لقضية سياسية بحتة، ما يجعل هذه الفتوى في حدّ ذاتها ذات أبعاد سياسية خطيرة، تؤثر من دون شك على تيّار التجنيس، وتقف حائلا في وجه استشراء هذه السياسة المهددة للروح القومية،ويمكن تبين خطورة هذا الموقف أيضا في ردّة فعل المستعمر إزاءها من خلال اضطهاد الجمعية وملاحقتها إلى درجة تمّ معها منع مدرسيها من التعليم والوعظ بالمساجد، والأماكن العامة بموجب قانون (دي ميشيل) سنة 1938 .

ومن بين القوانين الصادرة عن مجلس النواب الفرنسيين التي شجبها ابن باديس قانون 1848 الذي يؤكّد أن الجزائر جزء من فرنسا، وفي سنة 1900صدر قانونٌ استولت بموجبه فرنسا على دور العبادة، وعلى الممتلكات الموقوفة على الشؤون الدينية الإسلامية، وضمّتها إلى أملاك الدولة الفرنسية ثم وضعت جميع هذه الأملاك تحت إدارتها، وأصبح التعليم العربي الإسلامي في الجزائر لا يمارس إلا برخصةٍ تمنحها السلطات الفرنسية عادة للعملاء والجهال.

كما استغرب ابن باديس القانون الفرنسي الصادر عام 1901 القاضي بفصل الدين عن الدولة وتم تطبيقه في فرنسا، وفي الجزائر على اليهود والمسحيين دون أن يمسّ المسلمين "وبذلك بقيت الشؤون الدينية للمسلمين في قبضة الدولة المستعمرة."(رحال، 1997 صفحة 54)

وكانت أقوال ابن باديس ذات صبغة سياسية في أكثرها، منها كلمة مشهورة تكاد تكون أخطر شعارٍ سياسي صدح به عالم في تلك الفترة حينما هتف في الجمع قائلا:"وأنا أقول لكم في هذا اليوم لم يبق لنا إلاّ أحد أمرين لا ثالث لهما، إمّا الموت أو الشهادة في سبيل الله منتظرين النصر الذي وعد به الله عباده المؤمنين أو الاستسلام، ومدّ أيدينا للأغلال،واحناء رؤوسنا أمام الأعداء فتكون النتيجة لا قدّر الله أن يجري علينا ما جرى ببلاد الأندلس، وغيرها من البلاد الإسلامية حين تركت الجهاد استسلمت للأعداء." (رحال، 1997 صفحة 55)

فهل يصح من بعد هذا أن نبقى على ضلالة في موضوع مساندة الجمعية للثورة؟ لقد كانت خدمتهم جليلة لها، ومهدوا وهيئوا النفوس التي ران عليها الاستعمار، وحَملوا البذور الأولى للفكر الثوري.

وفي وقت أبدت بعض الأحزاب السياسية الجزائرية مساندة منقطعة النظير لفرنسا قبيل انطلاق الحرب العالمية الثانية، رفضت جمعية العلماء صنيعهم، ولفظت من جمعيتها أصحاب هذا الموقف المتخاذل، ولحسن الحظ أنهم كانوا قلّة، بل كان فردا واحدا فقط. ولم يكن هذا الشخص سوى الشيخ العقبي الذي اضطره هذا الموقف إلى الخروج من الجمعية، وتأسيس جريدة الإصلاح مع بقائه مصرا على موقفه إلى غاية سنة 1961 تاريخ وفاته، ويعزي البعض موقفه هذا إلى"غسيل مخ تعرّض له بعد سجنه في قضية اغتيال المفتي ابن دالي كحول يوم 2 أوت 1936" (بوعزيز، 2009 صفحة 320)

فقد اقترح العقبي على مجلس الجمعية المنعقد سنة 1938 أن يقدم شواهد الإخلاص لفرنسا ويتضامن معها أسوة بالهيئات الرسمية التي بعثت ببرقيات تضامن وتأييد للسياسية الفرنسية فشجب الأعضاء موقفه، وأعلن ابن باديس على لسان كل عضو"أعلن أنّي غير مخلص لهاوكيف أكون مخلصا، ومدارسنا العربيّة الحرّة مغلقة، ومعلمّوها في السجون؟كيف أكون مخلصا والمساجد محرّمة على العلماء لتعليم الأمة وإرشادها؟ إن اليّد التي كتبت هذا الإخلاص يجب أن تُقطع وتُرمى." (رحال، 1997 صفحة 96)

ومن بين الصحف التي قادت الحملة جريدة النجاح العميلة حيث سأله محررها مشككا،متى كانت حدود الجزائر على ما هي عليه الآن،فيجيبه ابن باديس:"لنفرض أن حدود الجزائر لم ترسم على صفتها الحاليّة شرقا وغربا إلا منذ مئة عام، فهل له أن يجيبنا متى كانت حدود فرنسا وألمانيا وايطاليا والنمسا والمجر ورومانيا ويوغسلافيا واليونان وبلغاريا كما هي الآن.

وحين يسأله عن وحدة اللغة في الجزائر، أهي العربيّة أم ماذا؟فيجيب ابن باديس بلكنة متهكمة:"فهل نستطيع أن نجيبه أنّ لغة هذا الوطن ليست عربيّة، بدليل أن جريدة النجاح تنشر بلغة الصين، وأنّ الجريدة الرسمية الحكومية تنشر إلى جانب نسختها الفرنسية نسخة بلغة البنط والكلدانيين، أم نقول له لا يوجد في أرض الجزائر إلاّ واحد في المائة من السكان المسلمين لا يتكلم العربية." (سلوادي، 2017 صفحة 215)

واستمر التوجيه السياسي للعلماء من قبل العربي التبسي في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينيات،فكان المبرز في هذا الميدان فلم تكد تدور مناسبة، أو تقف فرصة، إلا وألقى فيها خطابا مرتجلا أو محضرا ينم عن قدراته التعبيرية في هذا الميدان العربي العريق، فجمع بين الحركة الدينية الإصلاحية في تعابيرها والجرأة الأدبية لدى الساسة الوطنين.

وكان خطابه في 19 أوت 1951 في اجتماع الجبهة صار أشد لهجة من سابقه،فشجب مواقف الاستعمار الحاقدة، وتسلح خلال هذه الخطبة بروح المؤرخ المدقق

في تواريخ الخزي الاستعماري وسياسته المجندة ضد الدين الإسلامي مثل قرار 07 سبتمبر 1830 الذي خول لفرنسا التحكم في الأوقاف الإسلامية "إن فرنسا الاستعمارية عاملت الإسلام معاملة تعد من أنكر المنكرات وشر المظالم إذ جعلت الإسلام متاعا يورث عن تركيا المهزومة، فلا منطق ولا عدالة ولا ديمقراطية تبيح لحكومة من حكومات الدنيا بأن تحكم على دين سماوي كالإسلام بأنه أمر دنيوي يتسلمه الغالب من المغلوب، والمُنتصِر من المُنتصَر.

ثم جاء الدور الثاني من اعتداء الحكومة على الدين منذ صدور قرار 09 ديسمبر1905 "القاضي بفصل الدين عن الدولة، وكان موقف الحكومة الاستعمارية، وهي صاحبة الحكم في التفريق بين الأديان – تقضي للمسيحية واليهودية بأن كلا منهما دين نطبق عليه قوانين فصل الدين عن الدولة وتقضي على الإسلام وحده في الجزائر بأنه ليس دين، ويخلص في طيات حديثه إلى نتيجة منطقية تكشف عن سياسة فردانية للمستعمر أمام قضايا المسلمين، وهي الاحتقار لهؤلاء المسلمين والاستخفاف بحقوقهم وإنكار حقوق الإنسان معهم."(التبسي، 1951)

ويشير الأستاذ المرحوم أبو القاسم سعد الله أن العلماء وقفوا من قضايا التقدم موقفا معتدلا، فكانوا بالنسبة للمرابطين مجددون مصلحون، وبالنسبة للنخبة محافظون تقليديون، وقد أمنوا بتقدم العلم وسيادة العقل وحرية الاجتهاد، ومن أجل ذلك شجعوا على التعليم العملي سواء بنشره في مدارسهم أو بإرسال أبنائهم إلى المدارس الفرنسية، ونادوا بتعليم المرأة،.(القاسم، 2007 صفحة 98)

خاتمة:

أسهمت جمعية العلماء المسلمين بقسط وافر في ترسيخ التربية الاجتماعية المبنية على مقاومة التجنيس، والتصدي له في مقام اللغة والشخصية والهوية، بخلق جيل يعتز

برصيده الفكري والديني واللغوي والوطني، ويحترم انتماءه ويدافع عنه، ولا يركن إلى الاستعمار مهما حاول بعض المتطرفين تزيينه في ناظره.

حرص العلماء في مقام التربية الدينية على التصدي للتيار الفكر الرجعي المحافظ المدعوم من قبل الدوائر الاستعمارية مما ساعد على تكوين طبقةٍ تنبذ الفكر الرجعي والاستعماري معا،وترفض فكرة القدريّة،فأنشئت جيلا جديدا متنصلا من الخرافة متشربا لدين سليم من بقايا الدجل مستعد للتغيير، وقادر على تحمل أعبائه وتبعاته.

كانت التربية السياسية عند العلماء المصلحين لا تكاد تنفصل عن الميدان الديني رغم أنهم لم يصرحوا بنشاطهم السياسي تقيّة، لكنهم كانوا يمارسون سياسة خفية تنضح بالمقاومة للأساليب الملتوية للمستعمر، وتفضح دسائسه، وقوانينه، وسياساته، وتحضر الجيل الصاعد ليتشرب الروح الوطنية، ويتهيأ لمستقبل التحرير، ويهضم فكرة التغيير عن طريق الثورة.

قائمة المصادر والمراجع:

بن العقون عبد الرحمن بن ابراهيم. (1984). *الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر*. الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب.

بن رحال الزبير. (1997). *الإمام عبد الحميد بن باديس*. عين مليلية الجزائر : دار الهدى .

بن قينة عمر. (1995). *في الأدب الجزائري الحديث تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما*. الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية.

بن نبي مالك. (1988). *الصراع الفكري في البلاد المستعمرة*. سورية : دار الفكر.

بن نبي مالك. (1991). *آفاق جزائرية للحضارة للثقافة للمفهومية*. الجزائر : مكتبة النهضةّ.

بوعزيز يحي. (2009). *موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب*. الجزائر : دار البصائر.

حاجم إسماعيل. (2007). *الصراع الحضاري في الرواية الفرنكفونية المغاربية*. الجزائر : دار الأمل.

حمّاني أحمد. (1984). *الصراع بين السنة والبدعة، أو القصة الكاملة للسطو بالإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس*. قسنطينة : دار البعث.

الديهي محمد الدين اسماعيل. (2015). *الإعلام التربوي الحديث*. الاسكندرية : مكتبة الوفاء القانونية.

الركيبي عبد الله. (2009). *:عروبة الفكر والثقافة*. الجزائر : دار الكتاب العربي.

زروخي إسماعيل. (2002). *دراسات في الفكر العربي المعاصر*. عين مليلة : دار الهدى.

سعد الله أبو القاسم (2007). *الحركة الوطنية الجزائرية*. الجزائر : دار البصائر.
سعد الله أبو القاسم. (2009). *الحركة الوطنية الجزائرية*. الجزائر : دار البصائر.
سلوادي حسن عبد الرحمن. (2017). *عبد الحميد بن باديس مفسرا*. مصر : دار الفاروق.
سيار الجميل. (1997). *التحولات العربية إشكاليات الوعي وتحليل التناقضات وخطاب المستقبل*. : الأهلية للنشر والتوزيع.
شلتاغ عبود. (1995). *الأدب والصراع الحضاري*. دمشق : دار المعرفة.
صفصاف عبد الكريم. (2005). *الفكر العربي الحديث والمعاصر*. الجزائر : دار الهدى.
العسلي باسم. (1986.)*عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية*. بيروت : دار النفائس.
مزوز عمار بن. (2010). *عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح*. الجزائر : دار الأمل.
النجار عبد المجيد. (2005). *دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين*. 2. مكان غير معروف : المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الدار الربية للعلوم.
الندوي أبو الحسن علي. (2006)**.***الصراع الفكري بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية*. الجزائر : دار الهدى.
التبسي العربي. (1951). خطاب 19 أوت 1951. البصائرع168.